



تحدث كثير من الكتاب والمفكرين عن أسباب تأخر النصر، وبطء تحقق الوعد الإلهي، في نصرة وانتصار المظلومين والمستضعفين من شعبنا السوري، وعن زيادة وغلو العصابة الحاكمة في التعسُّف والصلف والوحشية.

فمنهم من تحدث عن أسباب لها ارتباط بضعف التنسيق بين الداخل والخارج، أو فيما بين الداخل نفسه، أو ما ظهر من انقسام المعارضة وتشتتها. ومنهم من ركز على الموقف الدولي الذي خذل الشعب السوري، أو قل: الذي أطلق للنظام الغاشم العنان ليقتل ويسفك ويشرد ويقصّف كيما يشاء، ومنهم... وهي بمجملها تحليلات وآراء مقبولة ومعقوله!!

ولكن من يدرى؟ فلعل في المسألة اختياراً ربانياً أو حكمة إلهية، مفادها: أن الله يريد أن يحمل المؤمنين في سوريا الشام مهمة عظيمة، ورسالة جسمية، مهمة هداية حركة الحياة في هذه الفترة، مهمة قيادة المنطقة إلى الإيمان والإسلام، والعدل والإحسان، وإنقاذهما من ظلمات الكفر والعمى والطغيان، كما يريد - جل شأنه وباركت أسماؤه - أن يصطفى منهم شهداء، يكرّهم ويقرّبهم إليه، يرزقهم ويحييهم، ويعنفهم رضوانه. فنعم التكريم تكريمه، ونعم القرب قربه، ونعم الحياة والرزق في جناته!!

فالجنة سلعة الله، وسلعة الله غالبة، فكيف لا تكون كذلك؟ وهي الدار التي خلقها الله بيده، وجعلها مأوى لأحبابه، وأفاض عليها وفيها من رحمته وكرمه ورضاه... فهي النعيم المقيم، والفوز الكبير، والطهر الذي لا يشوّبه نقص أو عيب... ولذلك كان الابتلاء والكرب والباس والضرر سبيلاً إليها: "أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَا تُكُمْ مَثُلُّ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتُهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولُ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ".

ومن يدرى فلعل الله - تعالى - أراد اصطفاء و اختيار أهل الشام بأن يجعل منهم أئمّة يهدون إلى الحق، ويدعون إلى الخير، ويأمرون وينهون بأمره جل جلاله؟؛ وتلك منحة ربانية، وعطية إلهية، لا تُعطى إلا للذين يتعرّضون لأنواع المحن والفتن والاختبارات، ثم يتخطونها بصبر جميل، ويقين صادق: "وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أئمّةً يَهُدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِإِيمَانِنَا يُوقِنُونَ".

فالصبر واليقين طريق إلى النجاح والتمكين، ولهذا كان لا بد لتحقيق الإمامة في الدين وحصول النصر، من طريق طويلة، ومحن كثيرة، وتمحیص شديد...ولنتأمل قول ربنا العظيم: "حتى إذا استیأسَ الرُّسُلُ وَظَنَّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءُهُمْ نَصْرًا فَلَنْجِيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بِأَسْنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ"؟

فلفظ (حتى) يعني انتهاء الغاية؛ والغاية هنا (استیأس)، فلا يتحقق ما بعدها (جاءهم نصراً) حتى يصل حملة الحق والخير نقطة الصفر في الكرب والضيق، واليأس واستبطاء النصر... أي: لا بد لهؤلاء الذين يُراد لهم تحمل هذه المهمة من الاختبار الدقيق، ولا بد لهم من محن وصعوبات وشدائد تقف في طريقهم، فمن صبر منهم على المحن وخرج منها ناجحاً فهو الأهل لهذه المهمة.

هذا، وقد نال صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما نالهم من البلاء العظيم، والكرب الشديد، والزلزال القوي، والامتحان المهول... حتى دفعهم إلى الإقبال على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شاكين: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعوا الله لنا؟ فقال لهم: "كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض، فيُجعل فيه، فيُجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصدّه ذلك عن دينه. ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصدّه ذلك عن دينه، والله ليُتَمَّنَ الله هذا الأمر، حتى يسیر الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنميه، ولكنكم تستعجلون". رواه البخاري.

قضية قتل وسفك دماء المؤمنين وانتهاك أغراضهم، واستباحة ممتلكاتهم ليست علامة فنائهم، بل ربما كانت دليلاً لنصرهم ودنو فجرهم، فبشار الأسد وزبانيته اليوم يفعلون كما يفعل فرعون وهامان وجندهما، فقد خدعوهم قوتهم وسلطتهم وحياتهم، فنسوا قدرة الله وتقديره، فراحوا يذبحون أبناء المؤمنين، ويستحيون نساءهم، ويسمونهم سوء العذاب، وهم يظلون أنهم بذلك يثبتون حكمهم، ويحملون عرشهم!! ولكن إرادة الله غير ذلك، فقد استحق فرعون وجنته غضب الله، وحاز المؤمنون الصابرون رحمة الله ورضاه، فجاء النصر للمؤمنين، والخزي والعذاب على الكافرين: "إِنَّ فَرْعَوْنَ عَلَى الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنَرِيدُ أَنْ تَمُّنَ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضْعَفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ".

أجل: لا بد من الشدائدي، ولا بد من الكروب، حتى لا تبقى بقية من جهد ولا بقية من طاقة. ثم يجيء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التي يتعلّق بها الناس. يجيء النصر من عند الله، فينجو الذين يستحقون النجاة، ينجون من الهلاك الذي يأخذ المكذبين، وينجون من البطش والعنف الذي يسلطه عليهم المتّجرون. ويحلّ بأس الله بال مجرمين، مدمرًا ماحفًا لا يقفون له، ولا يصدّه عنهم ولّي ولا نصیر. ذلك كي لا يكون النصر رخيصةً ف تكون الدعوات هزلاً. فلو كان النصر رخيصةً لقام في كل يوم دعى بدعوة لا تكلفه شيئاً. أو تكلّفه القليل. ودعوات الحق لا يجوز أن تكون عبثاً ولا لعباً. فإنما هي قواعد للحياة البشرية ومناهج، ينبغي صيانتها وحراستها".

فيما أهل الشام! يا أهل سوريا جميعاً! ما أدركتم لعلكم المقصودون، ولعلكم المختارون، ولعلكم المصطفون،
الذين يحيون ما جاء به رسول رب العالمين، ولعلكم الوارثون لإرث أنبياء رب العظيم؟!

فلا تستقلوا أنفسكم أيها الثنائرون! ولا تحرّرن شأنكم أيها المجاهدون! أن تكونوا حملة شرف المهمة الكبرى (الحرث والزرع والري) فأنتم اليوم تتخطّون اختبارات المحن والشدائدي، وتحمّلون المشاق والتبعات؛ فقد قدمتم الشهداء، وبذلتكم الأرواح: قدمتم الغولي من الأطفال والنساء والشباب والشيوخ، فاصبروا واثبتو وثقوا بنصر الله، وتوكّلوا عليه: "...وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أُمُرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ".

المصادر: